الجزء الثاني والعشرون — سورة يس

وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ
ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى
فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾

سُورَةُ يسٓ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ
صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ
أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ
فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى
ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا
وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ
عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ
مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ
وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ
مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾

٤٤٠

معانى الكلمات :

بما كسبوا : أى بسبب ذنوبهم . **من دابة** : أى من إنسان أو حيوان . **يس** : حرفان للتنبيه على إعجاز القرآن، وقيل: معناهما : يا إنسان ، وقيل: معناهما : يا سيد البشر،وقيل: من أسماء الرسول ﷺ. **الحكيم** : المحكم الذى لا يلحقه تغيير . **صراط مستقيم** : شرع مستقيم لا انحراف فيه .**حق القول**: وجب العذاب . **أغلالا** : قيوداً . **مقمحون** : رافعو رؤوسهم لا يستطيعون خفضها . **نكتب** : نسجل ما عملوا . **آثارهم**:ما سنوه لغيرهم من عمل حسن أو قبيح.

أحصيناه: أثبتناه وحفظناه . **إمام مبين** : أصل بين واضح .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يعرف المؤمن مظاهر رحمة الله بعباده .

٢ ـ أن يشعر المؤمن بآثار رحمة الله عليه .

٣ ـ أن يتبع المسلم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

المحتوى التربوى :

يأتى ختام سورة فاطر يكشف عن حلم الله ورحمته إلى جانب قوته وقدرته ، ويؤكد أن إمهال الله للناس عن حلم وعن رحمة ، لا يؤثر فى دقة الحساب وعدل الجزاء فى النهاية : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ وإن ما يرتكبه الناس من كفر لنعمة الله ، ومن شر فى الأرض وفساد ، ومن ظلم فى الأرض وطغيان ، إن هذا كله لفظيع شنيع ولو يؤاخذ الله الناس به لتجاوزهم ـ لضخامته وشناعته وبشاعته ـ إلى كل حىّ على ظهر هذه الأرض ، ولأصبحت الأرض كلها غير صالحة إطلاقاً ، لا لحياة البشر فحسب ، ولكن لكل حياة أخرى والتعبير على هذا النحو يبرز شناعة ما يكسب الناس وبشاعته

وأثره المفسد المدير للحياة كلها لو أخذهم الله به غير أن الله حليم لا يعجل على الناس ويفسح لهم فى الفرصة لعلهم يحسنون صنعاً ، ثم يأتى وقت الحساب فى الآخرة فلا يظلم أحد شيئاً ﴿ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ يؤخرهم أفرادًا إلى أجلهم الفردى حتى تنقضى أعمارهم فى الدنيا ويؤخرهم جماعات إلى أجلهم فى الخلافة المقدرة لهم حتى يسلموها إلى جيل آخر ويؤخرهم جنسًا إلى أجلهم المحدد لعمر هذا العالم ومجىء الساعة الكبرى .

إن الآيات تستثير فى المؤمن عواطف الرحمة والحلم والصبر على الناس حتى يستميل قلوبهم ، لأن الناس جبلت قلوبهم على الميل لمن يرفق ، والانفضاض عن الفظ الغليظ .

سورة يس :

سورة يس مكية آياتها ثلاث وثمانون ، وهى ذات فواصل قصيرة وإيقاعات سريعة ، وقصر الفواصل مع سرعة الإيقاع يطبع السورة بطابع خاص فتلاحق إيقاعاتها وتدق على الحس دقات متوالية ، يعمل على مضاعفة أثرها ما تحمله معها من الصور والظلال التى تخلعها المشاهد المتتابعة من بدء السورة إلى نهايتها وهى متنوعة وموحية وعميقة الآثار . وهى تهتم بقضايا العقيدة ، وتركز بصفة خاصة على قضية البعث والنشور .

تبدأ السورة التى تتناول قضية العقيدة ـ بالحديث عن القرآن ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ **قال صاحب الظلال** : « ويصف القرآن ، وهو يقسم به بأنه القرآن الحكيم ، والحكمة صفة العاقل ، والتعبير على هذا النحو يخلع على القرآن صفة الحياة والقصد والإرادة ، وهى من مقتضيات أن يكون حكيما ، ومع أن هذا مجاز إلا أنه يصور حقيقة ويقربها ـ فإن لهذا القرآن لروحًا ، وإن له لصفات الحىّ الذى يعاطفك وتعاطفه حين تُصفِّى له قلبك وتصفى له روحك ! وإنك لتشتاق إليه كما تشتاق إلى ملامح الصديق وسماته ، ولقد كان رسول الله ﷺ يحب أن يسمع تلاوة القرآن من غيره ، ويقف ينصت إذا سمع من يرتل هذا القرآن ، كما يقف الحبيب وينصت لسيرة الحبيب» .

والقرآن حكيم يخاطب كل أحد بما يدخل فى طوقه ، والقرآن حكيم ، يربى بحكمه . وفق منهج عقلى ونفسى مستقيم .

ثم يأتى القسم من الله عز وجل بأن محمداً هو الرسول، والله سبحانه ليس بحاجة إلى القسم ، ولكن هذا القسم منه ـ جل جلاله ـ يخلع على المقسم به عظمة وجلالاً .

فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ ﴾ هذا بيان لطبيعة الرسالة بعد بيان طبيعة الرسول ، فطبيعة الرسالة الاستقامة ، وهذه الاستقامة لها توابع ، فيقول صاحب

الظلال : « هى لاستقامتها ـ بسيطة لا تعقيد فيها ولا التواء ، لا تعقد الأمور ولا توقع فى إشكلات من القضايا والتصورات والأشكال الجدلية ، وإنما تصدع بالحق فى أبسط صوره .

وضوح الشريعة والطريق ذلك لأنها رسالة للناس كافة ، ولتكون ملائمة لحياة الناس البادى والحاضر ، والأمى والعالم ، وساكن الكوخ وساكن العمارة ، ويجد فيها كل حاجته ، ويدرك منها ما تستقيم به حياته ونظامه وروابطه فى يسر ولين » .

ثم تستمر الآيات فتعرض مصدر الإنذار وهو الله العزيز الرحيم : ﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ والمنذرون كفار قريش الذين لم ينذر آباؤهم من قبل فكانوا غافلين عن الهدى ، وهنا تظهر رحمة الله على عباد بإرسال الرسل ، وتهيئة الدعاة من بعد الرسل لإنذار الناس ؛ ذلك لأن الغفلة أشد ما يفسد القلوب ، فالقلب الغافل معطل عن وظيفته معطل عن الالتقاط والتأثر والاستجابة ، تمر به دلائل الهدى أو يمر بها دون أن يحسها أو يدركها ، ودون أن يستقبل أو ينبض ، ومن ثم كان الإنذار هو أليق شىء بالغفلة التى كان فيها القوم الذين مضت الأجيال دون أن ينذرهم منذر أو ينبههم منبه ، فهم من ذرية إسماعيل ولم يكن لهم بعده من رسول فيها فالإنذار قد يوقظ الغافلين المستغرقين فى الغفلة الذين لم يأتهم ، ولم يأت آباءهم نذير .

ثم يكشف عن مصير هؤلاء الغافلين ، فلقد قضى الله فى أمرهم ، وحق قدر الله على أكثرهم بما علمه من حقيقتهم أنهم لا يؤمنون ، ويصورهم السياق كأنهم مغلولون ممنوعون ، إن أيديهم مشدودة بالأغلال إلى الأعناق ، موضوعة تحت أذقانهم ، ومن ثم فإن رؤوسهم مرفوعة قصرًا لا يملكون أن ينظروا بها إلى الأمام ، وهم إلى هذا محال بينهم وبين الحق بالحواجز والسدود ، مغطى على أبصارهم فلا يبصرون ، ولا ينفع الإنذار قلب غير مهيأ للإيمان على هذا الشاكلة ، إنما يوقظ القلب الحى المستعد للتلقى .

ويأتى السياق بالإنذار أن كل ما قدمت أيديهم من عمل ، وكل ما خلفته أعمالهم من آثار كلها تكتب وتحصى ، وقد عددها الله عز وجل وبينها فى الوح المحفوظ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الحذر من الذنوب والمعاصى ، وعدم الاغترار بحلم الله وإمهال الله للعاصين .

٢ ـ أن يقبل المسلم على القرآن بكل جوارحه .

٣ ـ أن يدعو المسلم إلى الله عز وجل بقدر علمه وطاقته .

٤ ـ أن يتذكر المسلم دائماً يوم الحساب .

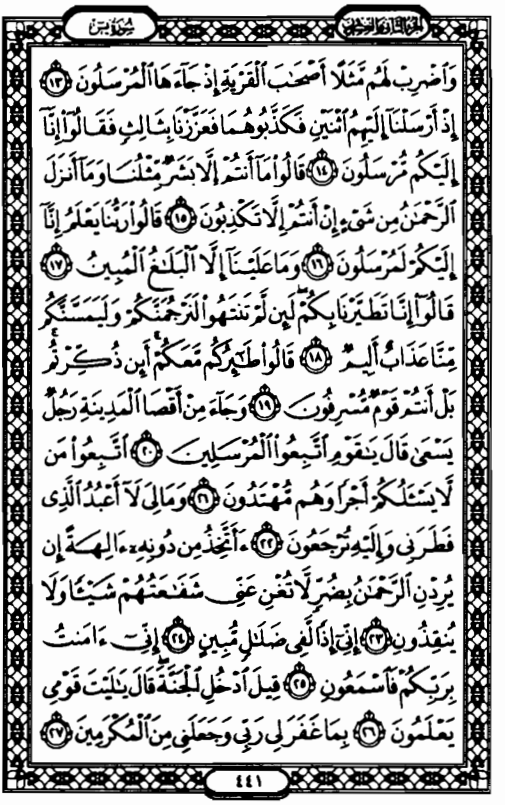
وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾
إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا
إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ
الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا
إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾
قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم
مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم
بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ
يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن
لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي
فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن
يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا
يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ
بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي
يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾
٤٤١

معانى الكلمات :

أصحاب القرية : أنطاكية .

عززنا : قوينا .

تطيرنا : تشاء منا .

لنرجمنكم : نرميكم بالحجارة .

مسرفون : كثيرو العصيان والإجرام .

أقصى : أبعد .

فطرنى : أى خلقنى .

لا تغن عنى : لا تنفع شيئًا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يعرف المسلم قصة مؤمن قرية أهل أنطاكية .

٢ ـ أن يشعر بضخامة المهمة التى قام بها الرسول ، وعظم التضحيات التى أدوها .

٣ ـ أن يصبر الدعاة فى دعوتهم لله عز وجل .

المحتوى التربوى :

وللتنوع فى وسائل التوجيه والنصح ، يأتى عرض قضية الوحى والرسالة ، وقضية البعث والحساب فى صورة قصصية بعد عرضهما فى صورة تقريرية ، لتكون عواقب التكذيب والإيمان معروضة كالعيان .

والقرآن فى عرضه لهذه القصة لا يذكر اسم القرية التى وقعت فيها السورة أو موضعها ؛لأن الهدف من ذلك مضمون القصة والعبرة منها ، لأن ذلك نموذج يتكرر فى كل زمان ومكان ، ولأن ذكر اسم القرية أو موضعها لا يزيد فى دلالة القصة أو إيحائها .

فهى قرية مؤمنة أرسل الله لها رسولين فكذبوهما ، فعززهما الله بثالث ، فاعترضوا بثلاثة اعتراضات : ﴿ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ ﴾ ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ .

والاعتراض على بشرية الرسل نموذج تكرر وتبدو فيه كما يقول **صاحب الظلال** : « سذاجة التصور والإدراك ، كما يبدو فيه الجهل بوظيفة الرسول ، فقد كانوا يتوقعون أن يكون هناك سر غامض فى شخصية الرسول وحياته تكمن وراءه الأوهام والأساطير ؟ كيف يكون شخصية مكشوفة بسيطة لا أسرار فيها ولا ألغاز حولها شخصية بشرية عادية من الشخصيات التى تمتلئ بها الأسواق والبيوت .

إن الرسالة منهج إلهى تعيشه البشرية وحياة الرسول هى النموذج الواقعى وفق ذلك المنهج الإلهى ، ومن ثم كانت حياة الرسول ﷺ معروضة لأنظار أمته ، وسجل القرآن المعالم الرئيسية فى هذه الحياة بأصغر تفصيلاتها، وأحداثها، حتى خطرات قلبه سجلها القرآن فى بعض الأحيان، لتطلع عليها الأجيال ، وترى فيها قلب ذلك النبى الإنسان .

وهذه البشرية من الرسل لتثبت أن الدين شامل لجميع مناحى الحياة ، وقد كان النبى راعياً وتاجراً ومعلماً قائداً ونقل أمة من رعى الغنم لقيادة الأمم قيادة جلبت الخير للبشرية ، وحين تركت قيادة البشرية انتشر فيها الخسف والجور والطغيان .

وتأتى الآيات برد الرسل على المكذبين بأنهم مرسلون وإن وظيفتهم هى التبليغ ، ولكن المكذبين تأخذهم العزة بالإثم بأنهم يتشاءمون من المرسلين بل يهددونهم بالإيذاء ، ولكن ثبات الرسل يظهر بردهم بأن تشاؤم الكفار من عند أنفسهم .

هنا يظهر موقف الدعاة أمام خرافات المشركين بإنكارها وأنه لا تشاؤم بالوجوه أو الأمكنة أو بالكلمات ، فهى خرافة لا تستقيم على أصل مفهوم ، وأن حظ الناس ونصيبهم من خير ومن شر لا يأتيهم من خارج نفوسهم ، إنما هو معهم ، مرتبط بنواياهم وأعمالهم متوقف على كسبهم وأعمالهم .

وجاءت الآيات هنا لتعرض نموذج الإيمان ، فجاء رجل من أبعد مكان فى المدينة يسعى ويعلن إيمانه وينصح قومه باتباع المؤمنين ، وهذا الموقف له معان جمة منها :

ـ أن الفطرة السليمة هى التى تستجيب للحق وتؤمن به .

ـ وأن قلة عدد المستجيبين للرسل والدعاة لا يعنى أن الرسل لم يؤدوا ما عليهم ، لأن وظيفتهم هى البلاغ .

ـ أن الإيمان له قوة تحرك أصحابه إلى الحق مهما كانت قوة الظالمين .

ويقول صاحب الظلال : « فهذا رجل سمع الدعوة فاستجاب لها ، بعد ما رأى فيها من دلائل الحق والمنطق ما يتحدث عنه فى مقالته لقومه ، وحينما استشعر قلبه حقيقة الإيمان تركت هذه الحقيقة فى ضميره فلم يطق عليها سكوتا ، ولم يقبع فى داره بعقيدته ، وهو يرى الضلال من حوله والجحود والفجور ، ولكنه سعى بالحق الذى استقر فى ضميره وتحرك فى شعوره ، سعى به

إلى قومه وهم يكذبون ويجحدون ويتوعدون ويهددون ، وجاء من أقصى المدينة يسعى ليقوم بواجبه فى دعوة قومه إلى الحق ، وفى كفهم عن البغى .

ظاهر أن الرجل لم يكن ذا جاه ولا سلطان ، ولم يكن فى عزوة من قوة أو منعة من عشيرته ، ولكنها العقيدة الحية فى ضميره تدفعه وتجىء بهمن أقصى المدينة إلى أقصاها » .

وجاءت الآيات بذكر دلائل صدق الرسل ، وبراهين كذب المشركين ، فالرسل لا يطلبون أجراً ؛ لأن ثوابهم لا يستطيع البشر أن يوفوه ، والرسل مهتدون ، لأنهم يدعون إلى نهج واضح ، ويدعون إلى عقيدة لا خرافة فيها ولا غموض ، ويستمر مؤمن هذه القرية فى ذكر دلائل الإيمان بأن الفطر مجذوبة إلى خالقها ، وأننا بعجزنا وضعفنا نلجأ إلى الخالق ، وهل أضل ممن ينحرف عن الخالق إلى آلهة ضعاف لا يحمونه ولا يدفعون عنه الضرر حين يريد به خالقه ذلك ، وإذا بصوت الفطرة يلقيه على مسامعهم بأنه قد آمن وهم شهود على إيمانه ، ونرى الشهيد الجاهر بالحق وقد دخل الجنة ، فتمنى لو رآه قومه ، ليعرفوا الحق بما آتاه الله من الرضا والكرامة .

وقد لاحظ صاحب الأساس عدة فوائد من هذه القصة فيقول :

١ ـ من فقه الدعوة فى هذه القصة أن تكليف ثلاثة فى شأن الدعوة غاية فى القوة ؛ فقد أرسل الله عز وجل أولاً اثنين لأهل القرية كما أرسل موسى وهارون إلى فرعون ثم عزز بثالث هنا ، ومن ثم نفهم أن تكليف ثلاثة فى مهمة دعوية أقوى .

٢ ـ من قوله تعالى :﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾ فهم بعضهم أن أطراف المدينة أقرب إلى الفطرة ومن ثم منهم.أدعى إلى الاستجابة وبعضهم يقول : إن الحادثة تدل على أن وسط المدينة أكثر تمسكًا بما ورثوه من عقائد وهذا كما ينطبق على عقائد باطلة ينطبق على عقائد حق وبالتالى يختلف هذا باختلاف ما إذا كان البلد إسلاميًا أولا .

٣ ـ نادرًا ما تجد خيرًا أو قدوة عليا فى أمة يس من الأمم إلا وتجد فى أمتنا مثله ، فهذا عروة بن مسعود الثقفى يشبه حاله حال مؤمن يسن .

٤ ـ من قصة يس ندرك ضلال من يظن أن القتل فى سبيل الله علامة على خطأ السير أو علامة على تهور صاحبه ، إن القتل فى سبيل الله له مردوده الكبير فى العمل الإسلامى، إن فى نفسية الظالمين أو فى نفسية المؤمنين فى الدنيا والآخرة ؛ الشهيد وعلى المسلمين بل على العالم كله .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ عدم السكوت على البدع والمنكرات المنتشرة فى المجتمع .

٢ ـ تنوع وسائل الدعوة من الوعظ وذكر الأمثال والقصص وغيرها .

٣ ـ ألا ييأس الدعاة فى الدعوة .

٤ ـ أن يديم المسلم التفكر فى خلق الله عز وجل .

وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا
كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ
﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ
أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ
﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ ۖ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا
فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ
وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ
وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى
خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ
وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ
فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ
ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ
عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ
ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾

معانى الكلمات :

صيحة واحدة : صوتا مهلكاً .

خامدون : ميتون لا حراك بهم .

القرون : الأمم .

آية : علامة .

الأرض الميتة : اليابسة .

نسلخ منه النهار : تنزع من مكانه الضوء .

قدرناه منازل : قدر الله سيره .

العرجون القديم : غصن النخل الذى اصفر وتقوس.

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يتعرف المسلم على بعض جوانب الإعجاز الإلهى .

٢ ـ أن يشعر المؤمن بقدرة الله فى خلقه ، ويدرك حجم التبعة الملقاة على عاتقه .

٣ ـ أن يبلغ المؤمن دعوة ربه ، بكل وسيلة ممكنة .

المحتوى التربوى :

يعرض السياق جزاء الظطاغين ، فقد كانوا أهون على الله من أن يرسل عليه الملائكة لتدمره ، فهو ضعيف ضعيف ، ولا يطيل هنا فى وصف مصرع القوم ، تهوينا لشأنهم ، وتصغيرًا لقدرهم ، فما كانت إلا صيحة واحدة أخمدت أنفاسهم،ويسدل الستار على مستعدهم البائس المهين الذليل.

ثم يبدأ الحديث بالتعميم فى موقف المكذبين بكل ملة ودين ، ويعرض صورة البشرية الضالة على مدار القرون ، وينادى على العباد نداء الحسرة وهم لا يتعظون بمصارع الهالكين الذين يذهبون أمامهم ولا يرجعون إلا يوم الدين .

وأسباب الحسرة يعرضها **صاحب الظلال** بقوله : « العباد تتاح لهم فرصة النجاة فيعرضون عنها ، وأمامهم مصارع الهالكين قبلهم لا يتدبرونها ولا ينتفعون بها ، ويفتح الله لهم أبواب رحمته

بإرسال الرسل إليهم الحين بعد الحين، ولكنهم يتجافون أبواب الرحمة، ويسيئون الأدب مع الله، ولقد كان فى هلاك الأولين الذاهبين لا يرجعون .. عظة لمن يتدبر ، ولكن العباد البائسين لا يتدبرون وهم صائرون إلى ذات المصير .. » .

إن الحيوان ليرجف حين يرى مصرع أخيه أمامه ، ويحاول أن يتوقاه قدر ما يستطيع ، فما بال الإنسان يرى المصارع تلو المصارع ، ثم يسير مندفعاً فى ذات الطريق والغرور يملى له ويخدعه عن رؤية المصير المطروق : وهذا الخط الطويل من مصارع القرون معروض على الأنظار ولكن العباد كأنهم عمى لا يبصرون » .

ثم تعرض الآيات مشاهد فى الكون تحدث عن وجود الله ، فيلتفت إليها المنتبهون ، ولينبَّه إليه الغافلون ليؤمنوا بالله عن طريق التفكر فى معجزاته مثل معجزة الحياة فهى معجزة لا تملك يد البشر أن تجريها ، فرؤية الزرع النامى ، والثمر اليانع لتفتح العين والقلب على يد الله المبدعة .

بل إن هذه المعجزة لتنبه الدعاة أن الكفار المتسلطين وهم مثل الأموات قد تبعث فيهم الهداية بقدر الله وأمره ، كما يبعث الله الحياة فى الأرض الميتة .

وتستمر الآيات فى إيراد معجزات فى خلقه وفضله عليهم بخلقه عز وجل الأحياء أزواجاً النبات فيها كالإنسان ويشير لجانب الإعجاز فى ذلك صاحب الظلال بقوله : « إن الوحدة لتشى موحدة اليد المبدعة، التى توجد قاعدة التكوين مع اختلاف الأشكال والأحجام والأنواع والأجناس والخصائص والسمات ، فى هذه الأحياء التى لا يعلم علمها إلا الله » ، فالخلق مختلفون فى كل شىء الأطوال والأوزان والألسنة والأمزجة حتى التوأمين لا تجد التطابق بينهما تاماً ، بل إن الثمرات مختلفة فى كل شىء فكل نوع مختلف عن النوع الآخر فى الحجم والطعم وكيفية الزرع والسقى والحصاد بل إن الثمرتين من النوع لا تجدهما متماثلتين .

ومن معجزات الأرض إلى معجزات السماء تنتقل بنا الآيات بذكر معجزة تعاقب الليل والنهار التى تتكرر كل يوم بميزان محسوب رقيق ـ فيما عدا بعض المواقع التى يدوم فيها النهار كما يدوم فيها الليل أسابيع وأشهراً قرب القطبين فى الشمال والجنوب وهو مع تكراره اليومى عجيبة تدعو إلى التأمل والتفكر .

ومعجزة الليل والنهار مرتبطة بعجزة هى أكبر هى معجزة الشمس التى تجرى فى اتجاه واحد فى الفضاء الكونى لا تتوقف إلا بإذن الله فى مستقر لا يعلمه إلا خالقها ، تجرى بميزان محسوب دقيق . وهذه الكتلة الهائلة تتحرك وتجرى فى الفضاء ، لا يسندها شىء ، ندرك طرفاً من صفة القدرة التى تصرف الوجود عن قدرة وعلم . ثم معجزة كونية تعرضها الآيات وهى معجزة

القمر الذى يبدأ هلالاً ثم ينمو ليلة بعد ليلة حتى يستدير بدراً ، ثم يأخذ فى التناقص حتى يعود هلالاً مقوساً كالعرجون القديم .

فى قوله تعالى : ﴿ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ ، يقول **صاحب الظلال** ـ بتصرف : « إنه تعبير موحٍ عجيب فالقمر فى لياليه الأولى هلال ، وفى لياليه الأخيرة ، ولكنه فى الأولى يبدو وكأن فيه نضارة وفتوة ، وفى الأخيرة يطلع وكأنما يغشاه سهوم ووجوم ، ويكسوه شحوب وذبول .. ذبول العرجون القديم وهو العذق الذى يكون فيه البلح من النخلة » .

والحياة مع القمر ليلة بعد ليلة تثير فى الحس مشاعر وخواطر ندية ثرية موحية عميقة ، والقلب البشرى الذى يعيش مع القمر دورة كاملة ، لا ينجو من تأثرات واستجابات ، ومن سبحات مع اليد المبدعة للجمال والجلال المدبرة للأجرام بذلك النظام سواء كان يعلم سر هذه المنازل والأشكال القمرية المختلفة أولا يعلم فالمشاهدة وحدها كفيلة بتحريك القلب واستجاشة الشعور وإثارة التدبر والتفكير » .

يقول **صاحب الأساس** فى قوله تعالى : ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ : .. هناك قراءة أخرى ذكرها ابن كثير للآية وهى : « والشمس تجرى لا مستقر لها » لا قرار لها ولا سكون .

وفى ختام هذا المشهد تأتى الآيات لتقرر دقة النظام الكونى فى قوله تعالى : ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ . فكل نجم وكل كوكب لا يتجاوز جريانه أو دورانه وقدر الله ذلك ليحفظ هذا الكون من التصادم أو التصدع ؛ وإن الإنسان ليتضاءل وهو ينظر إلى هذه الملايين التى لا تحصى من النجوم الدوارة ، والكواكب السيارة ، وهى مع ضخامتها أشبه بحركة السفن فى الخضم الفسيح ، هى نقطة سابحة فى ذلك الفضاء المرهوب .

والتفكر فى هذه المعجزات وحسن عرضها أمام الناس يقودهم للإيمان ؛ لأنها تلامس أدق تفاصيل حياتهم ، ولها دور فى منافعهم ومعايشهم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الله لا يغفل عن الظالمين وإن أمهلهم لبعض الوقت .

٢ ـ أن يحسن المسلم أخذ العبرة والعظة من قصص السابقين .

٣ ـ شكر الله فى كل مكان وآن وحال .

٤ ـ دوام التفكر فى خلق الله عز وجل ، وإدراك جانب الإعجاز فى ذلك .

وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا
لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ
وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا
قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾
وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ
﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي
ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ
﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ
﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾
وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ
﴿٥١﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ
وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً
وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ
نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾
٤٤٣

معانى الكلمات :

فلا صريخ: فلا مغيث . **متاعاً إلى حين**: أى إلى موعد مقدور لإهلاكها . **اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم** : تجنبوا غضب الله ، وارتكاب الذنوب . **أنطعم من لو يشاء الله أطعمه** : يقول الكافرون استهزاء : هؤلاء الذين تأمروننا بالإنفاق عليهم لو أراد الله لأغناهم وأطعمهم من رزقه . **لوعد** :يوم القيامة . **صيحة واحدة** : أى نفخة الموت .

يخصمون : أى يختصمون ويتجادلون .

فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون : فإذا بهؤلاء الأموات يخرجون من قبورهم مسرعين . **يا ويلنا** : يا هلاكنا .

محضرون : مجموعون فى موقف الحساب .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يتعرف المسلم على فضل الزكاة والإنفاق فى سبيل الله ، وسوء عاقبة كتمانهما .

٢ ـ أن يشعر المؤمن بفضل الله عليه فيما بين يديه من نعم الله .

٣ ـ أن يؤدى المسلم شكر نعمة الله عز وجل عليه بالزكاة والصدقة وغيرهما من أنواع الشكر

المحتوى التربوى :

يقول صاحب الظلال : « إن فى السياق مناسبة لطيفة بين النجوم والكواكب السابحة فى أفلاكها والفلك المشحون السابح فى الماء يحمل ذرية بنى آدم ! مناسبة فى الشكل ومناسبة فى الحركة ومناسبة فى تسخير هذا وذلك بأمر الله وحفظه بقدرته فى السموات والأرض سواء وهذه آية كتلك ، يراها العباد ، ولا يتدبرونها ، بل هذه أقرب إليهم وأيسر تدبرًا لو فتحوا قلوبهم للآيات » .

نعمة أخرى على العباد تذكرها الآيات هى نعمة البحر وتهيئة الماء ووضع خواص فيه لحمل السفن ، وهى نعمة يشعر بها من يركب البحر فى السفن التى خلقها الله لعباده ، بل إن الإعجاز

الذى ذكر فى الآية يسع كل العصور كما قال صاحب **الأساس** فى تفسيره عند قوله تعالى : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ فالفلك فى الآية هى السفن ، والسفن تصنع من خشب وحديد ، أو من حديد فقط ، ومما يشبه السفن من وسائل حديثة تسير فى البر السيارات والقطارات والدبابات والطائرات ، وهى لم تكن موجودة زمن نزول الوحى .

إن هذه الآية تشير لشمولية القرآن والمنهج الذى جاء به الإسلام ، كما تشير إلى أن الإعجاز فى خلق السموات والأرض واقع إلى قيام الساعة مهما أتى الخلق من عجائب المخترعات ، وبديع الاكتشافات .

ثم تأتى الآيات بعد ذلك بذكر امتنان الله عز وجل على عباده بأنهم إذا ركبوا فى السفن أدركتهم رحمة الله ؛ لأن السفينة فى البحر كالريشة فى مهب الريح مهما ثقلت وضخمت وأتقن صنعها ، وإلا تدركها رحمة الله فهى هالكة هالكة ، والذين ركبوا يعرفون أخطاره وأهواله .

يقول صاحب الظلال عن هذه الآيات : « هى بذاتها كافية أن تثير فى القلب المفتوح هزة ورعشة وانتفاضة ، وأن تخلطه بهذا الوجود ، هذا الكتاب المفتوح الذى تشير كل صفحة من صفحاته إلى عظمة الخالق ، ولطيف تدبيره وتقديره » .

والعجب بعد ذلك هؤلاء الكفار حين تلامس هذه الآيات الكونية حياتهم ومعايشهم فى برهم وبحرهم لكنهم فى غفلة لا تتوجه أنظارهم ، ولا تستيقظ قلوبهم ، وتتتابع الآيات على هؤلاء الكفار والمعاندين وتتوالى الرسل لينذروهم لكنهم يعرضون ، بل إنهم حين يطالبون بالإنفاق لإطعام الفقراء يتطاولون على من يدعونهم قائلين لهم : ﴿ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ .

إن هذا الموقف يشى بمعان كثيرة منها :

ـ إن المنكرين لله يجب أن تكثف الدعوة إليهم ، وينوع الأسلوب لأنهم أغلظ الناس قلبا لتقبل الإيمان ، فيذكرون بالأمم السابقة التى ظلمت وتجبرت ، ويهددون بيوم الحساب وما فيه من أهوال ، وبالنعمة التى بين أيديهم ومقتضيات دوامها ، ومقتضيات زوالها .

ـ كما أن تصور الكافرين أنهم المطعمون يشى بعدم إدراكهم سنن الله عز وجل كما **يقول صاحب الظلال** بتصرف : « فالله رازق الجميع ، وكل ما على الأرض من أرزاق ينالها العباد هى من خلقه ، ولكن اقتضت مشيئة الله أن تكون للناس حاجات لا ينالونها إلا بالكدح والكدّ ، كما اقتضت أن يتفاوت الناس فى المواهب والاستعدادات حتى تفاوتت الأرزاق بين أيدى العباد

فمنهم الأثرياء ومنهم الفقراء ، ويعالج الإسلام ذلك بخروج أصحاب الثراء عن قدر من مالهم يعود على الفقراء ، ويكفل طعامهم وضرورياتهم ، ولهذا القدر تصلح نفوس كثيرة من الفقراء والأغنياء سواء ، فقد جعله الإسلام زكاة ، وجعل فى الزكاة معنى الطهارة ، وجعلها كذلك عبادة ، وألف بها بين الفقراء والأغنياء فى مجتمعه الفاضل الذى ينشئه على غير مثال ».

فقولة أولئك المحجوبين عن إدارك حكمة الله فى الحياة : ﴿ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ ﴾ وتطاولهم على الداعين إلى الانفاق بقولهم : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ .. إن هو إلا الضلال المبين الحقيقى عن إدارك طبيعة سنن الله وإدراك حركة الحياة وضخامة هذه الحركة وعظمة الغاية التى تتنوع من أجلها المواهب والاستعدادات وتتوزع بسببها الأموال والأرزاق .

والإسلام يضع النظام الذى يضمن الفرص العادلة لكل فرد ، ثم يدع النشاط الإنسانى المتنوع اللازم للخلافة فى الأرض يجرى مجراه النظيف ثم يعالج الآثار السيئة بوسائله الواقية .

ويقول صاحب الأساس : بمناسبة قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ . دل هذا على أن الكفر معدن الشح ، وأن الحياة البشرية بدون إيمان لا يمكن أن يقوم فيها نظام اقتصادى متراحم متعاطف ، ومن ثم نلاحظ أن التكافل (فى النظم الوضعية) لا يقوم إلا بسيف القانون ، أما فى النظام الإسلامى فسيف التشريع قائم ، ومع ذلك فللتراحم البشرى وللتعاطف محله ، وبدون ذلك لا تستقيم الحياة البشرية ، فسيف القانون لا يطول كل الأحوال ، والتراحم والتعاطف لا يكفيان فى كل الحالات » .

ثم تنتقل الآيات لذكر إنكار المشركين ليوم البعث كما أنكروا آلاء الله فى الحياة الدنيا . وتحذير الله لهم بأن يوم القيامة سيأتيهم وهم يختصمون ويتشاجرون على عادتهم ، فيموتون ثم يبعثون ويحاسبون ويرون جزاء الصد والعنت والإنكار وثواب الإيمان والتسليم لله .

فى الآيات ما يشير إلى أن المعصية تقود إلى معصية أخرى فالمشركون أنكروا آلاء الله ونعمه فامتنعوا عن شكرها بالإنفاق وكفروا بيوم القيامة الذى حُذروا من عقاب الله فيه .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أن القرآن صالح لكل زمان ومكان وأنه منهج الله الذى وضعه لعباده .

٢ ـ الحذر من المعاصى صغيرها وكبيرها .

٣ ـ أن نحذر من البخل وأهله وأن نوطن أنفسنا على الجود والسخاء ما أمكن ذلك .

٤ ـ تذكر يوم القيامة وشدائده .

معانى الكلمات :

شغل : نعيم عظيم يشغلهم عما سواه .

فاكهون : متلذذون أو فرحون .

الآرائك : السرر المزينة . **متكئون** : جالسون فى استرخاء ومتعة . **امتازوا** : أى انفردوا عن المؤمنين . **جبلا كثيراً** : خلقاً كثيرين أضل الشيطان. **اصلوها** : ادخلوها أو قاسوا حرها . **نختم على أفواههم** : نمنعهم من الكلام يوم القيامة . **طمسنا على أعينهم**: أعميناهم . **لمسخنا على مكانتهم** : جعلناهم متجمدين فى مكان معاصيهم . **نعمره** : نجعل عمره طويلا . **ننكسه فى الخلق** : نجعله يمر فى مراحل الضعف فيصير كالطفل لا يعلم شيئاً .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يتعرف المؤمن على صور ومشاهد الكافرين فى الآخرة .

٢ ـ أن يمتلئ قلب المؤمن خشية من الله عز وجل .

٣ ـ أن يتدارس المؤمن القرآن بتدبر وخشية .

المحتوى التربوى :

وبعد عرض عقاب الكافرين تعرض الآيات جزاء المؤمنين فهم بسبب شكرهم لربهم مشغولون بما فيه من النعيم كما شغلوا بربهم فى دنياهم ، هم وأزواجهم فى راحة فى الآخرة ، كما أتعبوا أجسامهم فى طاعته فى الدنيا ، والتكريم الأكبر هو رضا الله عنهم وإلقائه السلام عليهم .

وأما الآخرون الضالون فلا يطوى السياق القرآنى موقفهم وحسابهم بل يعرضه السياق القرآنى معرض التبكيت والتنكيل ، ويعزلون عن المؤمنين فى موقف الحساب ، وقد كان هؤلاء الكافرون يتجنبون المؤمنين فى الدنيا كبرًا ، ويوبخهم الله على كفرهم وقد أرسل إليهم الرسل ،

وكانت الدلائل الواضحة أمامهم فى الدنيا . فالآيات تعرض هنا أيضاً طريق الرشد الذى حاد عنه المشركون وهو الطريق المستقيم هذا الطريق ضلّ عنه خلق كثيرون ذلك أن الإيمان اصطفاء من الله لعباده الذين تفتحت قلوبهم وعقولهم ، وفقهوا تبعات هذا الإيمان ، وصبروا على ما ابتلوا من الأذى والشهوات لكن الضالين لم يعقلوا ولم يهتدوا .

ثم تأتى الآيات بمشهد يخذل الكفار بعضهم بعضاً وتشهد عليهم جوارحهم ، وتتفكك شخصياتهم مزقًا وآحادا ، يكذب بعضها بعضًا وتعود كل جارحه إلى ربها مفردة ويثوب كل عضو إلى بارئه مستسلمًا إنه مشهد عجيب رهيب تذهل من تصوره القلوب . وكذلك انتهى المشهد وألسنتهم معقودة وأيديهم تتكلم وأرجلهم تشهد على غير ما كانوا يعهدون من أمرهم وعلى غير ما ينتظرون ، ولو شاء الله لفعل بهم غير ذلك ولأجرى عليهم من البلاء ما يريد الخير الإيمان .

فى قوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ **يقول الإمام الشوكانى** : « وقيل : سبب الختم على أفواههم ليعرفهم أهل الموقف ، وقيل : ختم على أفواههم لأجل أن يكون الإقرار من جوارحهم ؛ لأن شهادة الناطق أبلغ فى الحجة لخروجه مخرج الإعجاز ، وقيل : ليعلموا أن أعضاءهم التى كانت أعواناً لهم فى معاصى الله صارت شهوداً عليهم ، وجعل ما تنطق به الأيدى كلاماً وإقراراً ؛ لأنها كانت المباشرة لغالب المعاصى ، وجعل نطق الأرجل شهادة ؛ لأنها حاضرة عند كل معصية وكلام الفاعل إقرار ، وكلام الحاضر شهادة ، وهذا اعتبار بالغالب ، وإلا فالأرجل قد تكون مباشرة للمعصية كما تكون الأيدى مباشرة لها » .

إن الآيات تظهر قدرة الله على الكافرين أنه لو شاء لجعل الكافرين فى مشهد مثير للسخرية منهم فهم عميان مطموسون ثم هم قد جمدوا فجأة فى مكانهم ، واستحالوا تماثيل لا تمضى ولا تعود ، هذا كله وقد كانوا هم أنفسهم يستخفون بالوعيد ويستهزئون منه .

بل إن الآيات لا تكتفى بإيراد ضعف الكافرين فى الآخرة وقدرة الله عليهم ، بل تعرض ضعفهم فى الدنيا فى قوله تعالى : ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ فإنهم إن عمروا طويلاً فإنهم صائرون إلى شيخوخة وهرم ، ثم إلى خرف ونكسة فى الشعور والتفكير ، ويبسط فى ذلك **صاحب الظلال** بقوله : « والشيخوخة نكسة إلى الطفولة بغير ملاحة الطفولة وبراءتها المحبوبة ، وما يزال الشيخ يتراجع ، وينسى ما علم وتضعف أعصابه ، ويضعف فكره ، ويضعف احتماله ، حتى يرتد طفلا ، ولكن الطفل محبوب اللثغة ، تبسم له القلوب والوجوه عند

كل حماقة ، والشيخ مجتوى لاتقال له عثرة إلا من عطف ورحمة ، وهو مثار السخرية كلما بدت عليه مخايل الطفولة وهو عجوز ، وكلما استحمق وقد قوست ظهره السنون .

﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ وردت قضية الوحى فى أول السورة والآن تجىء فى صورتها هذه للرد على ما كان يدعيه بعضهم من وصف النبى ﷺ بأنه شاعر ووصف القرآن الذى جاء به بأنه شاعر وما كان يخفى على كبراء قريش أن الأمر ليس كذلك ، وأن ما جاءهم به محمد ﷺ قول غير معهود فى لغتهم وما كانوا من الغفلة بحيث لا يفرقون بين القرآن والشعر إنما كان هذا طرفًا من حرب الدعاية التى شنوها على الدين الجديد وصاحبه ﷺ فى أوساط الجماهير معتمدين فيها على جمال النسق القرآنى المؤثر .. وهنا ينفى الله سبحانه وتعالى أنه علَّم الرسول الشعر وإذا كان الله لم يعلمه فلن يعلم .

ثم ينفى لياقة الشعر بالرسول ﷺ : ﴿ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾ فالشعر منهج غير منهج النبوة الشعر انفعال وتعبير عن هذا الانفعال والانفعال يتقلب من حال إلى حال والنبوة وحى على منهج ثابت على صراط مستقيم يتبع ناموس الله الثابت الذى يحكم الوجود كله ولا يتبدل مع الأهواء الطارئة تقلب الشعر مع الانفعالات المتجددة التى لا تثبت على حال ..

والنبوة اتصال دائم بالله ، وتلق مباشر عن وحى الله ، ومحاولة دائمة لرد لحياة إلى الله ، وبالتالى فإن القرآن ليس من جنس الشعر ، هو ذكر من الله يوعظ به الإنس والجن ، ذكر لله يشتغل به القلب ، وقرآن يشتل به اللسان ، وهو منزل ليؤدى وظيفة محددة .

يقول صاحب الظلال : « ويضع التعبير القرآنى الككفر فى مقابل الحياة، فيجعل الكفر موتا، ويجعل استعداد القلب للإيمان حياة ، ويبين وظيفة هذا القرآن بأنه نزل على الرسول ﷺ لينذر من به حياة ، فيجدى فيهم الإنذار ، فأما الكافرون فهم موتى لا يسمعون النذير ... وهكذا يعلم الناس أنهم إزاء هذا القرآن فريقان : فريق يستجيب فهة حى، وفريق لا يستجيب فهو ميت ، ويعلم هذا الفريق أن قد حق عليه القول ، وحق عليه العذاب » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الحذر من الشيطان ووسوسته وإغرائه .

٢ ـ ضرورة إخلاص العبادة لله عز وجل .

٣ ـ الإيمان هو الحياة الحقيقية للقلب ، والكفر هو الموت بعينه .

٤ ـ ضرورة الارتباط بالقرآن ترتيلا ومدارسة وتدبراً .

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا
مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾
وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟
مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ
نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ
إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا
خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا
مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾
قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ
﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم
مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾
إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾
فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾
سُورَةُ الصَّافَّاتِ
٤٤٥

معانى الكلمات :

أنعاماً : الإبل والبقر والغنم والمعز .

ذللناها : سخرناها .

خصيم مبين : شديد الخصومة .

رميم : بالية متفتتة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يعلم المؤمن فضل التفكر فى خلق الله .

٢ ـ أن يشعر المسلم بفضل الله عليه .

٣ ـ أن يديم المسلم التفكر ويكثر من الشكر لله .

المحتوى التربوى :

وتواصل الآيات عرض قضية الألوهية والوحدانية ، من خلال مشاهدات القوم أمامهم ، ونعم الله عليهم من الأنعام على اختلاف أنواعها ، ومن قدرة الله وتدبيره فيها ، وما أودع الله فيها من الخصائص كى تكون مسخرة ومهيأة للناس ، ويتأمل فى هذه النعم **صاحب الظلال** : « وحين ينظر الإنسان إلى هذه النعم ـ فإنه يحس لتوه أنه مغمور بفيض من نعم الله ، فيض يتمثل فى كل شىء حوله ، وتصبح كل مرة يركب فيها دابة ، أو يأكل قطعة من لحم ، أو يشرب جرعة من لبن ، أو يتناول قطعة من سمن أو جبن ، أو يلبس ثوباً من شعر أو صوف أو وبر إلى آخره ،

لمسة وجدانية تشعر قلبه بوجود الخالق ورحمته ، ويطرد هذا فى كل ما تمس يده من أشياء حوله ، وكل ما يستخدمه من حى أو جامد فى هذا الكون الكبير ، وتعود حياته كلها تسبيحاً لله وحمداً وعبادة آناء الليل وأطراف النهار » .

ورغم هذه النعم الماثلة لكن الناس لا يشكرون نعم الله عز وجل عليهم بل يعبدون معبودات شتى مثل الأصنام والجن والملائكة أو النجوم . ويتركون عبادة المنعم المتفضل الذى يكلأ الخلق برحمته ، ويرزقهم ، رغم أن ما يعبدونه من هذه الأصنام هم أنفسهم الذين يحمونها ، ومن يعبدون النار هم الذين يوقدونها ، ومن يعبدون الحيوان هم الذين يطعمونها . وفى قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ .

يقول صاحب الظلال : « وكان هذا غاية فى سخف التصور والتفكير ، غير أن غالبية الناس لم ترتق عن هذا السخف إلا من حيث الشكل ، فالذين يؤلهون الطغاة والجبارين اليوم ، لا يبعدون كثيراً من عباد تلك الأصنام والأوثان ، فهم جند محضرون للطغاة ، وهم الذين يدفعون عنهم ، ويحمون طغيانهم ، ثم هم فى الوقت ذاته يخرون للطغيان » .

وفى قوله تعالى : ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ **يقول الإمام الشوكانى** فى هذه الآية : « هذا القول ما يفيده قوله : ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً ﴾ والكلام من باب التسلية للرسول ، ويجوز أن يكون المراد بالقول المذكور : هو قولهم : إنه ساحر وشاعر ومجنون » .

ويقول **القاسمى فى تفسيره محاسن التأويل** : .. .تقديم السر لبيان إحاطة علمه تعالى بحيث يستوى السر عنده والعلانية أو للإشارة إلى الاهتمام بإصلاح الباطن . فإنه ملاك الأمر ..

ثم يعرض النص قضية البعث والنشور ، وقضية القدرة المطلقة لله عز وجل ، فالله خالق النطفة وبقدرته حول تلك النطفة إنساناً ثم أصبح هذا الإنسان يجادل ربه ويخاصمه ويطلب منه البرهان والدليل !

يجادل الإنسان فى الخلق وهو يصنع فى حياته أشياء وآلات ، وإذا أصاب هذه الآلات العطب صنع غيرها فلما يستعظم الإنسان على القدرة أن تعيده وتنشره بعد البلى والدثور!

ثم يزيد الله هذه القوة والقدرة إيضاحاً بأن ينتبه الناس لمشاهدة يرونها دائماً لكنهم يمرون عليها غافلين ، فهم يرون الأشجار الناضرة التى تروى بالماء ثم يصير هذا الشجر وقوداً للنار، والمعرفة العلمية الدقيقة العميقة لطبيعة الحرارة التى يختزنها الشجر الأخضر من الطاقة

الشمسية، وهو ريان بالماء ناضر بالخضرة .. هذه المعرفة العلمية تزيد العجيبة بروزاً فى الحس ووضوحاً ، ولو فتحنا لها قلوبنا لباحت لنا بأسرارها ، ولعشنا معها فى عبادة دائمة وتسبيح .

ثم يستطرد القرآن فى عرض دلائل القدرة وتبسيط قضية الخلق والإعادة للبشر أجمعين فى قوله تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فعند التفكر فى هذا الكون .. فى هذه الأرض التى نعيش عليها ، ويشاركنا ملايين الأجناس ؛ ثم نحن لا نعلم شيئاً من حجمها ، ولا شيئاً من حقيقتها ، ولا نعلم عنها حتى اليوم إلا القليل ، هذه الأرض تابع صغير للشمس التى تعيش أرضنا على حرارتها وضوئها وهذه الشمس تمثل مائة مليون مليون من المجرة التى تتبعها شمسنا وفى الكون مجرات كثيرة ، والكل فى حركة ، ويحفظ الله هذه الأفلاك فلا تصادم ولا اضطراب ، كل هذا دليل على هوان خلق الإنسان على الله عز وجل.

﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ وأين الناس من ذلك الخلق الهائل العجيب ؟ ﴿ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ ولكنَّ الله سبحانه يخلق هذا وذلك ويخلق غيرهما بلا كلفة ولا جهد ، ولا يختلف بالقياس إليه خلق الكبير وخلق الصغير : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ يكون هذا الشىء سماء أو أرضًا ويكون بعوضة أو نملة هذا وذلك سواء أمام الكلمة كن فيكون .. ليس هناك صعب ولا سهل وليس هنالك قريب ولا بعيد .. فتوجه الإرادة لخلق الشىء كاف وحده لوجوده كائنًا ما يكون .. إنما يقرب الله للبشر الأمور ليدركوها بمقياسهم البشرى المحدود ﴿ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ولفظة ملكوت بصياغتها هذه تضخم وتعظم حقيقة هذه العلاقة علاقة الملكية على كل شىء من هو المملوك .. ثم إن إليه وحده المرجع والمصير .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ التفكر فى خلق الله عز وجل .

٢ ـ وجوب شكر الله عز وجل .

٣ ـ إدراك حمق الكفر وتردى أهله .

٤ ـ أن يحسن المسلم الدعوة لعبادة الله عز وجل .